دار القاسم

حسن الظن بالله

الإمام
ابن قيم الجوزية

الرياض ص.ب ٦٣٧٣ الرمز ١١٤٤٢ هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ ف: ٤٠٣٣١٥٠
جدة ت: ٦٠٢٠٠٠٠ ف: ٦٣٣٣١٩١ بريدة ت: ٣٢٦٢٨٨٨ ف: ٣٦٩٢٨٨٨
الدمام ت: ٨٤٣١٠٠٠ ف: ٨٤١٣٠١١ خميس مشيط ت: ٢٢٢٢٢٦١ ف: ٢٢٢٣٠٥٠
www.dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وبعد:

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ولا ريب أن حسن الظن بالله إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه، أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبدًا، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظنّاً بربه أطوعهم له. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حالَ مرتحل في مساخطه وما يغضبه، متعرض للعنته، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه، وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أولياءه، ووالى أعداءه، وجحد صفات له، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر.

وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب، وقد قال الله ـ تعالى ـ في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٣].

فهؤلاء لما ظنوا أن الله ـ سبحانه ـ لا يعلم كثيرًا مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غرورًا وخداعًا من نفسه، وتسويلاً من الشيطان، لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيع لأوامره معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به.

وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني. وقد قال أبو سهل ابن حنيف: «دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير، أو سبعة دنانير. فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها فقال: «ما فعلت أكنت فرقت الستة الدنانير»، فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: «ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده»، وفي لفظ: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده».

فبالله ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم، فإن كان ينفعهم قولهم: حسنًا ظنوننا بك إنك لم تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما شاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله، ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦ ـ ٨٧] أي ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه، فالذي حمله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله.

وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**».

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن.

فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن على سعة مغفرة الله ورحمته، وعفوه، وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو.

قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به، فإنه ـ سبحانه ـ موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه.

فما ينفع المجرم اسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبدل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة. ثم أحسن الظن بعدها فهذا هو حسن الظن، والأول غرور والله المستعان.

يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا البطالين والفاسقين، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر ـ سبحانه ـ أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن فإنه أكذب الحديث**» [البخاري ومسلم].

أن استمراء ظن السوء وتحقيقه لا يجوز، وأوّله بعض العلماء على الحكم في الشرع بظن مجرد بلا دليل.

روى الترمـــذي عن ســـفيان: «الظن الذي يأثم به من تكلم بـــه، فإن لم يتكلم لم يأثم». وذكر ابن الجوزي قول سفيان هذا عن المفسرين ثم قال: «وذهب بعضهم إلى أنه يأثم بنفس الظن ولو لم ينطق به».

قال القاضي أبو يعلى: إن الظن منه محظور «وهو سوء الظن بالله» والواجب حسن الظن بالله ـ عز وجل ـ.

والظن المباح كمن شـــك في صلاته إن شاء عمل بظنه وإن شاء باليقين. وروى أبو هريـــرة مرفوعًا: «إذا ظننتم فلا تحققوا» وهذا من الظن الذي يعرض في قلب الإنســـان فى أخيه فيما يوجب الريبة.

قال ابن هبيرة الوزير الحنبلي: «لا يحل والله أن يحســـن الظن بمن ترفض ولا بمن يخالف الشرع في حال».

وقـــال ﷺ: «ما أظن فلانًا وفلانًا يعرفان من ديننا شـــيئاً»، وفي لفظ: «ديننا الذي نحن عليه» [البخاري]. قال الليث بن سعد: كانا رجلين من المنافقين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رســـول الله ﷺ: «حســـن الظن من حســـن العبادة» [أحمد وأبو داود].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها ســـوءًا وهو يجد لها في شـــيء من الخير مخرجًا. وقال أيضا: لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه».

وقـــال أبو مســـلم الخولانـــي: «اتقوا ظن المؤمـــن فإن الله جعل الحق على لســـانه وقلبه».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لله درُّ ابن عباس إنه لينظر إلى الغيب عن ســـتر رقيقه».

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله ـ عز وجل ـ».

وفـــي الصحيحـــين أن صفية أتت النبي ﷺ تزوره وهـــو معتكف، وأن رجلين من الأنصار رأياهما فأســـرعا فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله. قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فخشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا». أو قال: «شرًا».

قال أبو حازم. العقل التجارب والحزم ســـوء الظن. وقال الحســـن: لو كان الرجل يصيب ولا يخطئ ويحمد في كل ما يأتي داخله العجب.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

دار القاسم تقدم برنامج القراءة بالمراسلة يصلك شهريّاً (٤ كتيبات ـ ٤ كتيب جيب ـ ٤ مطويات) باشتراك سنوي (١٧٥) ريال.

حقوق الطبع والنشر محفوظة

مطابع دار القاسم ت: ٢٧٠٩٥٥٥ ف: ٢٧٠٧٧٠٨